بين المكابرة والكِبْر

من الكِبْر تنشأ المكابرة، وفي أحضانه ينشأ العناد، وتحت رعايته ينمو سوء الخلق، والعنف، وغلظ الطبع وقسوة التعامل، لأن المكابر متكبِّر، والمتكبِّر لا يرى أبعد من أرنبة أنفه، ولا يسمع صوتاً غير صوت نفسه.

ولذلك كان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أبعدَ الناس عن المكابرة، وعن الكبر الذي ينتج عنه سوء الخلق، لأنهم دعاة مصلحون، جاؤوا ليرقوا بالبشرية إلى ذروة العبادة لله، ومن كان مصلحاً صالحاً، فلا يمكن أن يكون متكبراً مكابراً.

ولذلك قال الله تعالى لنبيِّه في كتابه الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

وهو المعنى المفهوم من وصية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 18-19].

إن المكابرة داء خطير تنشره بين الناس جرثومة الكبر القاتلة، التي لا ينجي منها إلا دواء التواضع لله تعالى؛ لأن من تواضع لله رفعه الله.

ومشكلة أهل المكابرة والكبرياء أنهم يقعون في الوعيد الشديد،لأن الكبرياء صفة خاصة بالله عز وجل المتفرِّدِ بصفات الكمال والجلال.

أما البشر فإن الكبرياء منهم سقوط وانحدار، لأنهم ناقصون؛ فهم بمكابرتهم يدَّعون ما ليس لهم.

قال الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «**العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذَّبته**».

وورد في الحديث الآخر الصحيح: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كبر** فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: **إن الله جميل يحب الجمال**».

الكِبْر: بطر الحقِّ وغمط الناس.

ومعنى «غمط الناس»: احتقارهم.

إنَّ المكابر المتكبِّر يسلك طريق الهلاك بنفسه، مخدوعاً عن النتيجة المؤلمة، بما يتحقَّق له من متعة التعالي الزائفة.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن ذلك في حديث حسَّنه الترمذي، جاء فيه: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه، حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم**».

وما الذي يصيبهم؟؟

يجيبنا رسول الله ﷺ بقوله: «**يحشر المتكبِرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: «بولس» تعلوهم نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار طينة الجنال**».

هكذا تكون النهاية مؤسفة لمن خرج بنفسه عن إطارها الصحيح، ولمن تعالى وتكبَّر، وطغى وتجبَّر.

لقد نقل ابن كثير في الجزء الأول من البداية والنهاية حديثاً قال عنه: إنَّ إسناده صحيح، جاء فيه:عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبَّة سيحان مزرورة بالديباج فقال: ألا إنَّ صاحبكم هذا «يعني النبي ﷺ» قد وضع كلَّ فارس بن فارس، ورفع كلَّ راع بن راع.

قال: فأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام بمجامع جبَّته وقال: «**لا أرى عليك لباس من لايعقل**».

ثم قال له: إنَّ نبيَّ الله نوحاً عليه السلام لمَّا حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية.

ـ آمرك باثنتين.

ـ وأنهاك عن اثنتين.

آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كِفّة، ووضعت «لاإله إلا الله» في كفّه رجحت بهنَّ «لاإله إلا الله».

ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كنَّ حلقةً مبهمة، فضمَّتهنَّ «لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده» فإنَّ بها صلات كلِّ شيء، وبها يرزق الخلق.

وأنهاك عن: الشرك والكبر.

قال ابن عمر، قلت: هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان؟

قال عليه الصلاة والسلام: لا.

قال: فهل هو أن يكون لأحدنا حُلّةٌ يلبسها؟

قال عليه الصلاة والسلام؟: لا.

قال: فهل هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

قال ﷺ: لا.

قال: فهل هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟

قال ﷺ: لا.

قال: قلتُ، أو قيل: فما الكبر يا رسول الله؟

قال: «**سفْهُ الحقِّ وغَمْضُ الناس**».

وأقول: ياله من تحديد نبوي بليغ واضح لمعنى الكبر، وياله من تواضع نبوي عظيم يجعل الصحابة يسألون أسئلة متكررة بهذه الصورة، والرسول عليه الصلاة والسلام ,يصغي إليهم هذا الإصغاءَ، ويجيبهم هذه الإجابة الواضحة!.

ومعنى سفهُ الحق: الاستهانة به.

وغمض الناس: احتقارهم مثل غمطهم.

هذا هو المعنى الشرعي الواضح للكبر والمكابرة.

أما ما ورد في كتب التاريخ والسِّير عن المكابرين، والمتكبرين من أخبار وقصص فهو من العجائب التي تستحق الاطلاع عليها.

ـ مواعظ وعبر.

ـ مواقف عجيبة.

ـ نهايات عجيبة.

ـ حقيقة لا تقبل الشك.

«ماتزال المكابرة بصاحبها حتى تهلكه ومايزال الكبر والعناد بصاحبه حتى يهوي به في مكان سحيق».

ومايزال الظلم والعنف والطغيان، تحطِّم أصحابها، وترسم لهم أبشع النهايات.

في الصفحات القادمة من هذا الكتاب، قصص لعدد من المكابرين تفتح أمامنا أبواب «**الموعظة والعبرة**» في أجلى صورها.

فأهلاً بكم ومرحباً

عبد الرحمن صالح العشماوي

المكابرون

لايخلو عصر من العصور، ولا مجتمع من المجتمعات البشرية من المكابرين، الذين يرون الحقَّ ولا يتَّبعونه، ويسمعون نداءه ولا يستجيبون له، ويبقون في باطلهم مصرِّين عليه مهما كان الحق واضحاً أمام أعينهم.

والمكابرون من البشر ليسوا من طبقة واحدة فمنهم الغني والفقير، والكبير والصغير، والعالم والجاهل، وقد ورد في السنَّة النبوية المطهَّرة حديث عن «العائل المستكبر» والمقصود بالعائل الفقير الذي لا مال له، بل يحتاج إلى من يعوله، وهو مع ذلك يتعالى ويتكبَّر ويرفض قبول الحق.

إننا نرى المكابرين في حياتنا الدنيا بصور مختلفة، ومستويات مختلفة، وندرك ما هم فيه من الشقاء، وضنك العيش، وضيق الصدر، وعدم قبول النصيحة وكلمة الحق، فنشعر بالشفقة عليهم، ونحمد الله الذي عافانا مما ابتلاهم به.

ولقد وقفت من خلال تجاربي في الحياة على نماذج من المكابرين، وتأمَّلت حالهم، ورأيت رأي العين النهايات المؤسفة لبعضهم، فوقر في نفسي أن أكتب شيئاً عن هذا المسلك المشين، وكتبت مقالاً قصيراً في زاويتي «دفق قلم» في جريدة الجزيرة عن المكابرين وأحوالهم، مع النصيحة لهم، فوجدت من الصدى لذلك المقال ما دفعني إلى فكرة هذا الكتاب.

توقفت وقتاً أما خطَّة الكتاب، هل أتناول فيه بعض القصص العامة من خلال الواقع المعاش؟ أم أتناول فيه روَّاد مدرسة «المكابرة» الكبار عبر التاريخ لأنَّ حياتهم حافلة بمظاهر تستحق الوقوف عندها، وفيها صورة متكاملة للمكابرة لا تكاد تخرج عنها حياة المكابرين في كل زمان ومكان؟

واستقر رأيي على تناول حياة «قدوات المكابرين السيّئة» عبر التاريخ.

ثم تساءلت: كم عدد المكابرين البارزين عبر التاريخ إلى يومنا هذا؟ وبحثت سريعاً فوجدت أنني أمام عدد لايمكن استيعابه، وأنَّ كتاباً ضخماً ذا أجزاء كثيرة لن يستوعب إلا جزءاً يسيراً من تلك الأعداد الكبيرة وبعد قراءة متأملة لحياة بعض المكابرين المشهورين عبر التاريخ، وجدت أن الاقتصار على عدد منهم يعطينا نماذج واضحة للمكابرة، فيها من العظة والعبرة ما يمكن أن ينتفع به الناس، مع ما فيها من الإثارة والتشويق.

«خمسة عشر مكابراً» ملؤوا الحياة ضجيجاً وصخباً، وعاشوها جوراً وطغياناً وظلماً، واعتداءً على الناس وسلباً للحقوق، وغادورها مهزومين مخذولين، قد خسروا دنياهم وآخرتهم خسراناً مبيناً.

لقد كان ودي أن أضمَّ إليهم نماذج من المكابرين المعاصرين البارزين، الذين يحيدون عن الحق وهم يعرفونه ويرونه رأي العين، ولكنني آثرت أن أتركهم لطبعة أخرى من هذا الكتاب، أو كتاب آخر خاص بهم ـ إن شاء الله ـ لأنني أتوقع لبعضهم نهايات سيئة مثيرة،

تبعاً لسنة الله عز وجل في هذا الصنف من عباده، تلك السنة التي لاتنقطع حتى تنقطع الحياة البشرية عن هذه الأرض؛ إن كنت ممن سيرى نهاياتهم المحتومة مع أنني قد رأيت نهايات بعضهم، كما رآها ملايين البشر من خلال الأحداث الأخيرة في العالم التي تتسابق وسائل الإعلام في عرضها، ونشرها تفاصيلها بالصوت والصورة.

إنَّ المكابرين الذين تناولتهم في هذا الكتاب يقدِّمون لنا أسوأ النماذج البشرية التي توغل في غرورها وغفلتها حتى يأخذها الله أخذ عزيز مقتدر، وإنَّ حياتهم لحافلة بالمواعظ لمن كان له قلبٌ حيٌّ ونفسٌ مطمئنة تتأثر بالموعظة، وتستفيد من دروس الحياة.

أرجو أن تكون رحلة القراء الكرام ماتعةً مفيدةً مع هذا الكتاب، وما أجمل أن أحظى بالنصيحة والتوجيه، والله المستعان.

د. عبد الرحمن العشماوي